

الريف

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

أراني كلما فسد الجو ، وكثر تقلبه ، وعن الاطمئنان اليه ،
أميل إلى الخروج إلى الصحراء أو الريف ، ولا أطيق القعود في
البيت ؛ ولست أعرف لهذا المزاج — الشاذ فيما أعتقد — تعليلاً
يسكن اليه العقل وتستريح اليه النفس . فأما أنه مزاج شاذ
فأعرفه من صباح أهلي حين يروني أردني ثيابي والمطر منهمر
والريح تعصف ، وأهم بالخروج ؛ ولست أراهم يعلنون أن يقولوا
لي : « يا شيخ ، ما هذا الجنون ؟ تخرج في هذا المطر ! أما إن
هذه الحكاية ! أقصد ... أقصد ... نضرم لك الفحم ، ونشوي
« أبا فروة » أو نعص القصب ونحمد الله على وقاية الجدران »
فأهن رأسي وأقول : « ما أحلى هذا ! ولكني لا أطيق المكث
هنا على حيي له بينكم ، ولست أحب أن أفارقكم لحظة ، وإنه
ليعز علي ألا تأخذكم عيني في حيناً أكون ، ولكن نفسي
أمارة بالسوء ، أو بالحفاقة ، أو بما شئتم غير ذلك . فإذا كنتم
تحبوني فتعالوا معي ... فإن الفضاء رحيب ، والصحراء واسعة ،
وهاوا القصب معكم ، وأبا فروة أيضاً ... نضع هذا كله في السيارة
ونحضي بها ... قوموا »

ولكنهم لا يفعلون ، فأمضي وحدي وأعود بزكام أو برد ،
ولكني أعود مستريح النفس هادي الأعصاب !
وقد كنت أقول لصديق لي منذ بضعة أيام ، وهو من
أحباب العقول المثقفة ، والنظر البعيد ، والنوص الشديد :

« يا أخي ، لماذا لا يحب المصريون الريف ؟ »

قال : « وكيف لا يحبونه وهم لا يرحونه ؟ »

قلت : « إنما أعني أهل المدن — القاهرة مثلاً — قلنا
يخطر لهم أن يقضوا أيام البطالة والفراغ من العمل في رحلة
إلى الريف »

قال : « وابن تريد أن يذهبوا ، وليس في الريف لغير أهله
مذهب أو مقام ؟ »

قلت : « هذا هو سؤالى ... لو كان الناس عندنا يحبون
الريف ويطيب لهم أن يقضوا فيه كل ما يسمهم أن يختلسوه من
الوقت ، لتغير حال الريف ، وتكيف على مقتضى هذه الرغبة ،

وصار لغير أهله فيه مذهب ومقام »

قال : « ربما » وانقطع كلامنا في ذلك

ولكني لم أكف عن التفكير فيه ، وقد أدت عيني في
شعوب البحر الأبيض فاذا أكثرها كأهل مصر ، ليس لهم
« غرام » أو « عشق » للريف أو ما يسمى « الطبيعة » ، فالروم
والطليان والفرنسيون والأسبان ، كلهم على شاكلةنا : الحضري
منهم يبق في المدينة ولا ينشد الريف أو يحن اليه ؛ والريف في
قربه ، يندر أن تنزع نفسه إلى تركها أو التطواف بيدها .
ولا نكران أن هجرة أبناء هذه البلاد إلى الأقطار الأخرى غير
قليلة ، وفي مصر وحدها منهم عشرات الألوف ، أو مئآت ،
ولكن الهجرة تنجى عن اضطرار لا عن رغبة ، والباعث عليها
الحاجة ، فلا دخل لهذا فيما أقول عنهم من ضعف ولوعهم
« بالطبيعة »

وأكثر الأجانب هنا يتخذون مساكنهم في قلب المدينة
ولا يبعدون بيوتهم عن أماكن عملهم بصدأ يكلفهم مشقة
أو يجشمهم عناء ونفقة ، ما خلا الإنجليز ، فإن الرجل منهم يكون
عمله في شبرا ، فيتخذ بيته في أطراف مصر الجديدة أو في الزمالك
على النيل ، أو في الجزيرة على طريق الهرم ، ولا يبالي ما يضيع
من الوقت في الذهاب والاياب ، ولا يحفل ما يكلفه هذا البعد
من النفقة . وقلما يقضى يوم بطالة في بيته إلا إذا كان مريضاً .
وليس بالنادر أن ترى الواحد منهم يحمل في سيارته خيمة وطعاماً
وشراباً يكفيان أياماً ، وفرشاً أيضاً للنوم والجلوس ، وأدوات
للعب ، ويذهب بذلك كله إلى السويس مثلاً ؛ ولو شاء
لأعنى نفسه من هذا العناء كله ، فإن يعدم فندقاً يبيت فيه ،
ولكنه يضرب خيمته على ساحل البحر أو في الصحراء ويقضى
أياماً ناعماً بالعزلة والوحدة وبما حوله من وجوه الأرض أو الماء ،
ويروح يمشي بضعة فراسخ كل يوم ... وقد يكون وحده ، فلا
يشعر بوحدة ولا تخطئه سكينه النفس ، وقد يكون معه غيره ،
فلا تراه — فيما يبدو لك — شاعراً بأنس يفتقده في وحدته ،
فكان أنسه كله بالحل لا بالرفقة .. ومن المتع التي يحرص عليها
أن يكون له بيت أو كوخ — سيان عنده — في مكان ريفي
بميد يذهب اليه كلما وسمه أن يخرج من مشاغل العمل . فهو في
مذا نسيج وحده . ولا يمنه الطر أو الأعصار أن يخرج في
ثياب المهرة ليتعشى ويرقص ويحج الليل على أسد حال ، ولا

الخليفة العزيز بالله

وزوجه النصرانية وأصهاره البطرك

للأستاذ محمد عبد الله عنان

يقعده البرد في بيته كما يقعدنا - حتى في بلاده التي لا أعرف أسخف منها جواً ، ولا أبعد عن الاعتدال ، فهو هناك كمهدنا به هنا وأهل الشام على خلاف أهل مصر ، فانهم كثيرو الخروج الى الرياض والبساتين ؛ حتى «فهوراتهم» أو «مقاهيمهم» . كما يريدوننا أن نسميها - قلما تكون إلا في بستان أو كما يقول ابن الرومي : « في » ميادين يخترقن بسانيه من تمس الرؤوس بالأهداب^(١) ولا أعرف كما قلت تمليلاً لهذا الاختلاف في الطباع ؛ وأحسب أن اعتدال جو بلادنا على العموم يحمل على الرضى بالوجود ولا يفرى بشيان غيره . ولماذا يشتاق ساكن المدينة الى الريف وليس في المدينة ما يزهده فيها ويدفعه الى الخروج منها والتماس ما هو أخف محملاً ، وأكفل براحة النفس وسكينة الأعصاب ؟ وما يساعد على القناعة ويبعث على القعود أن التنوع مفقود ؛ فالذي يترك القاهرة لا يتوقع أن يستفيد متعة يحظىها فيها ؛ والمناظر في الريف واحدة أو هي متشابهة ، فلا جبال هناك ولا غابات ولا أحراج ، ولا غير ذلك مما يحرك الخيال فيحرك النفس ، ولا اختلاف هناك يجعل للنقلة لذة رجي . والريف من مصر قريب ، فهو معروف غير مجهول . والضجاء حولها من بعض جهاتها فلا موجب للتخيل ، ولكن الانجليزية شأنه غير شأننا ، فإن جو بلاده دائم التقلب ، وهو مع تقلبه السريع سخيف غير مأمون ؛ وقد يكون هذا مما يدفع الانجليزية الى اشتياق الريف ويفر به بتصور سحره وبيئته على التماسه ونشده حتى ولو تكررت خيبة أمله فيه

وأأم البحر الأبيض شبيهة بنا من حيث المزاج ، وجوها أقرب الى الاعتدال من جو الشمال ؛ ومن هنا فيما أظن مشاكمتها لنا في هذه الطبيعة ، ولست أرى وجوه الاختلاف تؤثر في هذا ولا نكران أننا تفرنا . فكثرت بيننا الذين يطلبون الريف أو الضجاء ويؤثرونهم ما على المدن ، ولكننا نعمل ذلك على سبيل التقليد ومن قبيل المحاكاة وبفضل التثقيف الحديث والاتصال الوثيق بالغرب لا بدافع من الفطرة وحافظ من الطبيعة . ومثلنا في هذا أم البحر الأبيض فقد ذهبت تقلد أم الشمال كالانجليزية والاسكندنافية والالمان ، وراحت تتكلف حب الطبيعة حتى لصارت تبدو كأن هذا فيها طابع ، وما هو بذلك

ابراهيم هيب القادر المازني

(١) البيت في الأصل « من ميادين الخ »

ليس غريباً أن تقرأ في التاريخ الاسلامي أن خليفة من الخلفاء قد ولد من أم نصرانية أو أنه قد تزوج من نصرانية وله بين الأمراء النصارى أصهار ولأولاده منهم أقارب ؛ ولكن ربما يبدو غريباً أن يقترن خليفة مسلم بنصرانية تنتهي إلى أسرة من الأحيار ، وأن يكون له بين أحيار الكنيسة أصهار ، ولولده منهم أقارب وخوولة ؛ تلك هي حالة العزيز بالله ثاني الخلفاء الفاطميين بمصر ، ولد المعز لدين الله ، ووالد الحاكم بأمر الله

كانت الخلافة الفاطمية منذ قيامها بمصر تنتسح بصفتها المذهبية العميقة ؛ بيد أنها رأت أن تتبع نحو اليميين من النصارى واليهود سياسة التسامح الحر ؛ وظهر أثر هذا التسامح جلياً في علائق اليميين بالدولة ، وفي ارتفاعهم إلى أرق مناصبها ؛ بل نرى في خلافة المعز لدين الله وولده العزيز تبتاً حافلاً من الوزراء والكتاب النصارى واليهود يحتلون أرفع المناصب في البلاط وفي الحكومة ؛ وكان أول وزراء الدولة الفاطمية وأعظمهم يهودياً اعتنق الاسلام ، وهو الوزير يعقوب بن كاس ؛ وفي عصر العزيز كان مدبر الدولة وكبير الوزراء نصراني هو عيسى بن نسطورس ؛ وكان متولى أعمال الشام يهودياً يدعى منشا ؛ وفي عهد المعز والعزيز أنشئت كنائس وأديار كثيرة ؛ وبلغ نفوذ النصارى واليهود ذروته في عصر العزيز حيث استولى الوزراء والكتاب اليميون على معظم أعمال الدولة ، واستأثروا بمعظم السلطات والنفوذ ، وقد كان لهذه السياسة التطرفة في التسامح والعطف أثر سيء في المجتمع المصري ؛ وتنقل الرواية إلينا في ذلك قصة خلاصتها أن العزيز بالله رأى ذات يوم في طريق الركب الخلفاء امرأة تمد بيدها رقعة كأنها ظلامه . فتناولها ، فاذا بالمرأة هيكل من الجريد قد ألبس إزاراً ، وإذا في الرقعة ما يأتي : « بالذي أعز اليهود بمنشا ، والنصارى بعيسى